



ورقة بحثية لإجابة أربعة أسئلة

حول زمن الاحتفال بعيدَي الميلاد والغطاس في الكنيسة القبطية

الرَّاهِب القس أنثاسيوس المقاري
الجمعة ١١ يناير سنة ٢٠١٩ م

وصلتني رسالة يوم عيد الميلاد الاثنين ٧ يناير سنة ٢٠١٩ م من أحد الأخبار الأجلء بالولايات المتحدة الأمريكية بما أربعة أسئلة للإجابة عليها، وفيما يلي بيانها.

السؤال الأول: لماذا نُعيد عيد الميلاد في يومي ٢٨، ٢٩ كيهك كل أربع سنوات؟

الجواب: كان الاحتفال بعيد الإيفانيا *Ἐπιφάνεια* "الظهور" أو الثيوفانيا *Θεοφάνεια* وهي الكلمة التي تحدّد بالفعل كُنْه هذا الظهور ونوعيته على أنه "الظهور الإلهي"، أي ظهور الله في أقانيمه الثلاثة - وهو تذكّار عماد الرّب في نهر الأردن - هو العيد الذي يحتل مكانة متميّزة، منذ بواكير المسيحية، وكان الاحتفال بعيد الظهور الإلهي في مصر والشّرق كلّهُ، هو لتذكّار الميلاد والغطاس ومعجزة تحويل الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل.

وبسبب الهرطقة الغنوسية التي كانت تؤمن بأنّ المسيح ظهر على الأرض فقط منذ معموديته، وأنه صار منذ هذه اللحظة الإنسان يسوع المسيح، حيث فهمت الغنوسية قول الآب عن ابنه وهو في نهر الأردن: «هذا هو ابني...». بمعنى أن الابن وُلد في تلك اللحظة. وهذا التعليل كان بسبب أن فكرة الميلاد الجسدي مكروهة عند غالبية الغنوسيين، وغير مُستحبة عند المعتدلين منهم، فارتاح الغنوسيون إلى فكرة ميلاد المسيح في لحظة معموديته من يوحنا، واعتبروها بداية تجسّده، فجسد المسيح ليس من طبيعة الأجساد الإنسانيّة - على حدّ قولهم - بل هو من طبيعة سماوية.

فكان هذا المفهوم هو الدافع الأساسي لتخصيص يوم محدد للاحتفال بميلاد السيّد المسيح، أي تجسّده، بدون إشراك عيد آخر معه في نفس اليوم. ومن ثمّ، صارت حتمية الاحتفال بعيد الميلاد هي بمثابة سلاح يحمي عقيدة التّجسّد ويصونها. وكانت كنيسة روما هي أوّل من عرف الاحتفال بعيد الميلاد في أوائل القرن الرّابع الميلادي، كعيد مستقل بذاته، في يوم ٢٥ ديسمبر من كلّ عام^(١). ومن روما، انتقل العيد إلى شمال إفريقيا، حيث تشهد الوثائق التّاريخية أنه كان يُحتفل به فيما بين سنة ٣٦٢-٣٦٣ م. وفي أواخر القرن الرّابع الميلادي، تبنته كنائس شمال إيطاليا؛ ميلانو وتورينو ورافينا. ثمّ انتقل الاحتفال بعيد الميلاد في ٢٥ ديسمبر مستقلاً عن عيد الغطاس في الشّرق، في الرّبع الأخير من القرن الرّابع الميلادي، في مناطق القسطنطينية وآسيا الصّغرى وأنطاكية.

وكانت كنيسة الإسكندرية هي آخر كنيسة عرفت عيد الميلاد مستقلاً عن عيد الغطاس؛ فلم يكن عيد الميلاد ضمن قائمة الأعياد التي أوردها البابا أنثاسيوس الرّسولي (٢٩٦-٣٧٣ م). ويخبرنا يوحنا كاسيان الذي عاش في مصر خلال الفترة (٣٨٥-٤٠٠ م) أن أساقفة مصر كانوا يحتفلون بعيد ميلاد المسيح وبعيد عماده في يوم واحد، عملاً بالتقليد القديم السائد في الشّرق^(٢). ومن سيرة البابا ثاوفيلس ال ٢٣ من باباوات الإسكندرية (٣٨٥-٤١٢ م) نعرف أنه وضع عدّة قوانين كنسية لم يرد

١- أوّل ذكر لاعتبار يوم ٢٥ ديسمبر أنه يوم ميلاد المسيح، جاء في التّقويم الفيلو كالي نسبة إلى واضعه "فوروس فيلو كالوس" *Furius Philocalus*.

Cf. Anton Baumstark, *Comparative Liturgy*, English Edition By F.L. Cross, London, 1958, p. 153.

2. John Cassian, *The Conferences*, X. *The Second Conference of Abbot Isaac, On Prayer*, Chapter II.

فيها ذكرٌ لعيد الميلاد^(٣)، بينما أشار فيها إلى عيد الإيفانيا وعيد الفصح. أما أول إشارة تفيد استقلالية عيد الميلاد في مصر، فقد وردت في العظة التي ألقاها بولس الحمصي حول عيد الميلاد سنة ٤٣٢م، في حضرة القديس كيرلس الإسكندري، يوم أن زار الإسكندرية^(٤). أي أنه لا يوجد دليلٌ واحدٌ على أن الفصل بين العيدين قد حدث في مصر قبل سنة ٤٣١م.

أما سبب اختيار يوم ٢٥ ديسمبر في الغرب، وخصوصاً في روما فكان بسبب أن الإمبراطور أوريليان Aurelian (٢٧٠-٢٧٥م) أدخل في عاصمة الإمبراطورية (روما) عيداً وثنياً للاحتفال بالشمس، دعاه عيد ميلاد الشمس التي لا تُقهر Natalis Solis Invicti وكان ذلك في يوم ٢٥ ديسمبر من كل عام. وإكراماً للإلهة "ميترا"^(٥) كانت مدينة روما تنظم في هذه المناسبة المهرجانات والألعاب المختلفة بدون التقيّد بأيّ رادع أخلاقي. وكان من المناسب أن تجد الكنيسة بديلاً لذلك، ولم تر أنسب من "تعميد العيد" انطلاقاً من فكرة أن المسيح هو "شمس البر" طبقاً لنبوّة ملاخي النبي (٢:٤).

إذاً صار يوم ٢٥ ديسمبر بحسب التقويم اليولياني^(٦)، بدءاً من القرن الخامس الميلادي، هو يوم عيد الميلاد في كل الشرق كما في الغرب أيضاً، إذ أن كثيراً من بلاد الشرق - ومن بينها مصر - كانت في هذا الوقت تابعة للإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف.

ولما تبني الأقباط التقويم القبطي للاحتفال بأعيادهم، فقد كان يوم ٢٩ كيهك هو يوم عيد الميلاد، وهو يوافق ٢٥ ديسمبر في السنوات القبطية البسيطة. أما في السنوات القبطية الكبيسة التي تتكرر كل أربع سنوات، فكان يوم ٢٥ ديسمبر يوافق يوم ٢٨ كيهك. ولأن الأقباط ظلوا يراعون أن يوم عيد الميلاد هو في الأصل يوم ٢٥ ديسمبر، وفي ذات الوقت هو يوم ٢٩ كيهك بحسب تقويمهم القبطي، فكانوا يحتفلون في السنوات القبطية الكبيسة بعيد الميلاد يوم ٢٨ كيهك (الذي يوافق ٢٥ ديسمبر) وهو اليوم الأساسي للعيد والذي يكون فيه السهر الليلي الذي يُختم بالقدّاس الإلهي، كما يحتفلون أيضاً باليوم التالي له، وهو يوم ٢٩ كيهك ولكن ليس بسهر ليلي، بل بإقامة قدّاس في الصّباح. وهكذا كانوا يحتفلون بعيد الميلاد مرتين في يومي ٢٨، ٢٩ كيهك كل أربع سنوات.

وظل هذا النظام متبعاً حتى سنة ١٥٨٢م. ففي عهد البابا غريغوريوس الثالث عشر (١٥٧٢-١٥٨٥م)، وقع الاعتدال الربيعي سنة ١٥٨٢م في يوم ١١ مارس بدلاً من ٢١ مارس بفارق عشرة أيام. فاجتمع مجمع الكرادلة في روما وقرّر أن يكون يوم ٥ أكتوبر موافقاً ليوم ١٥ أكتوبر في هذه السنة المذكورة، وذلك من أجل تصحيح الخطأ في الاعتدال الربيعي. فاستيقظ الناس يوم ٦ أكتوبر سنة ١٥٨٢م ليجدوا أنفسهم في يوم ١٦ أكتوبر. ومنعاً لتكرار الخطأ، قرّر مجمع الكرادلة بأن تكون السنوات التي تأتي في نهاية القرون سنوات كبيسة، إذا قبلت القسمة على ٤٠٠ وليس على ٤ وهذا التعديل هو ما عُرف باسم "التعديل الغريغوري".

ولأن الكنيسة القبطية مع كنائس أخرى في الشرق لم توافق على التقويم الغريغوري المعدل، ففي السنة التالية مباشرة لسنة ١٥٨٢م، أي سنة ١٥٨٣م، كان يوم ٢٥ ديسمبر موافقاً ليوم ١٨ كيهك سنة ١٣٠٠ش (بحسب التقويم الغريغوري المعدل)، ولكن بحسب التقويم اليولياني القديم الذي ظللنا متمسكين به، كان يلزم إضافة عشرة أيام هي الفارق بين التقويمين،

٣- عموماً لم يرد أي ذكر لعيد الميلاد في الشرق في آية قوانين كنسية قبل قوانين مجمع ترولو سنة ٦٩٢م، وبالتحديد في القانون ٧٩ لهذا المجمع.

4- James Hastings, *Encyclopedia of Religion and Ethics*, volume III, Edinburgh-New York, 1910, p. 604.

٥- إلهة عُرفت في الأوساط الهندية والفارسية. وبعد أن دخلت عبادتها العالم الروماني، احتلت الحُلّ الرئيسي في أوساطه العسكرية، خصوصاً في القرن الثالث بعد الميلاد. وكان الاحتفال بطقوسها في الدهاليز، كما كان عابدها يُسمّون إلى سبع مراتب أو درجات.

٦- التقويم اليولياني، نسبة إلى يوليوس قيصر، الذي استعان بعالم فلكي من الإسكندرية اسمه "سوسيجين". وهو الذي نقل التقويم المصري القديم سنة ٤٦ ق.م ولكنه عدّل في ترتيب الشهور، فجعل الفردي منها ٣١ يوماً، والزوجي ٣٠ يوماً، ما عدا شهر فبراير فجعله ٢٩ يوماً تُزاد إلى ٣٠ يوماً كل أربع سنوات. ثم جاء أغسطس قيصر، فعُدّل هذا الترتيب إلى الوضع المعروف الآن، حين جعل شهر أغسطس ٣١ يوماً، وبالتالي صار شهر فبراير يتأرجح بين ٢٨ و ٢٩ يوماً. وعُرف هذا التقويم باسم "التقويم اليولياني".

أي أننا احتفلنا في هذه السنة بعيد الميلاد يوم ٤ يناير وهو الموافق ٢٩ كيهك سنة ١٢٩٩ش، وهي سنة قبطية بسيطة. وكان أن أصبحت السنوات القرنية ١٧٠٠، ١٨٠٠، ١٩٠٠م سنوات بسيطة بحسب التعديل الغريغوري، لأنها لا تقبل القسمة على ٤٠٠ في حين أنها في ذات الوقت معتبرة بحسب التقويم اليولياني القديم كبيسة، لأنها تقبل القسمة على ٤ وهكذا زاد الفرق ثلاثة أيام أخرى، ليكون مجموع الأيام ١٣ يوماً. ففي سنة ١٩٠٠م، وقع عيد الميلاد يوم ٧ يناير الموافق ليوم ٢٩ كيهك سنة ١٦١٦ش. وفي سنة ١٩٠٤م، وقع العيد يوم ٧ يناير/ ٢٨ كيهك ١٦٢٠ش، لأنها سنة قبطية كبيسة، فكان الاحتفال بالعيد يومين. وهكذا استمر الحال حتى إلى يومنا هذا، حيث احتفلنا بعيد الميلاد يوماً واحداً في سنة ٢٠١٩م أي يوم ٧ يناير لأنه يوافق ٢٩ كيهك ١٧٣٥ش، لأنها سنة قبطية بسيطة. أمّا في سنة ٢٠٢٠م، فسيكون الاحتفال بعيد الميلاد يومين، لأن يوم ٧ يناير سيوافق يوم ٢٨ كيهك سنة ١٧٣٦ش، وهي سنة قبطية كبيسة.

وسيستمر الحال على هذا المنوال حيث نُعيد عيد الميلاد يوم ٧ يناير لمدة يوم واحد على مدى ثلاث سنوات، هي السنوات القبطية البسيطة، ثم نعيد عيد الميلاد لمدة يومين مرة واحدة كل أربع سنوات في السنوات القبطية الكبيسة.

وفي سنة ٢١٠٠م، وهي سنة قرنية، فهي بحسب التقويم اليولياني القديم سنة كبيسة لأنها تقبل القسمة على ٤ ولكنها سنة بسيطة بحسب التقويم الغريغوري المعدل لأنها لا تقبل القسمة على ٤٠٠، وهكذا سوف يُزاد الفارق بين التقويمين إلى ١٤ يوماً. فيكون يوم عيد الميلاد هو يوم ٨ يناير من كل سنة بدءاً من سنة ٢١٠٠م حتى إلى سنة ٢١٩٩م. ويكون يوم ٩ يناير من سنة ٢٢٠٠م حتى سنة ٢٢٩٩م... إلخ.

من هذا نرى أن الأصل في زمن الاحتفال بعيد الميلاد في الكنيسة القبطية هو يوم ٢٥ ديسمبر حتى القرن السادس عشر الميلادي. وظلنا بعد التعديل الغريغوري نراعي أيضاً التقويم الإفرنجي في الاحتفال بعيد الميلاد. فهل يجيء وقت على الكنيسة القبطية تقنن فيه التقويم الغريغوري المعدل؟

في النهاية أود أن أشير إلى ملاحظة تدعم ما سبق أن قلته، وهي؛ بسبب أننا نتبع التقويم اليولياني القديم، فهناك فترة زمنية في السنة تتأثر بها الأعياد الكنسية، حيث يزداد يوم على العيد إذا وقع في السنوات الكبيسة خلال هذه الفترة، وهي تلك الواقعة بين ١١ أو ١٢ سبتمبر (عيد النيروز)، ويوم ٢٩ فبراير.

فمثلاً عيد الأنبا أنطونيوس، ثابت في التقويم القبطي بأنه يقع يوم ٢٢ طوبة من كل سنة قبطية بدون تغيير. فإن كانت السنة الميلادية المقابلة للسنة القبطية سنة بسيطة يكون العيد في يوم ٣٠ يناير، مثل سنة ٢٠١٩م. أمّا إن كانت السنة الميلادية كبيسة، فيكون العيد يوم ٣١ يناير، مثل سنة ٢٠٢٠م، لكي يظل العيد ثابتاً في ٢٢ طوبة. وهنا الأساس الذي يُبنى عليه يوم الاحتفال بالعيد هو التقويم القبطي.

أمّا في عيد الميلاد فليس الأمر كذلك، لأن الأساس الذي يُبنى عليه يوم الاحتفال بعيد الميلاد هو التقويم الإفرنجي وليس القبطي، لذلك نجد أن التقويم الإفرنجي (٢٥ ديسمبر أو ٧ يناير حالياً) هو الثابت، أمّا التقويم القبطي فيتحرّك صعوداً وهبوطاً وفقاً له، أي يكون ٢٨ أو ٢٩ كيهك.

وجدير بالملاحظة هنا، أنه من عيد النيروز إلى أول يناير يكون الفرق بين التقويمين القبطي والإفرنجي ٢٨٣ سنة. ومن بعد أول يناير وحتى عيد النيروز، يكون الفرق ٢٨٤ سنة.

السؤال الثاني: هل حقاً كان عيد البشارة يقع في يوم ٧ برمودة/ ٢ إبريل وقت أن كنا نحتفل بالميلاد والغطاس معاً في يوم ١١ طوبة/ ٦ يناير؟

الجواب: ليس هناك أي ذكر لعيد البشارة في هذه القرون المبكرة من تاريخ الكنيسة. وأوّل ذكر له كان في أواخر القرن السّابع الميلادي في الكنيسة البيزنطية، وهو ما نقرأه في القانون رقم (٥٢) من قوانين مجمع ترولو المنعقد سنة ٦٩٢م، الذي يقول: "يقام قُدّاس القُدسات السّابق تقديسها في كلّ أيام الصّوم ما عدا السُّبوت والآحاد ويوم عيد البشارة المقدّس".

وهذا القانون يعالج وضعاً طرأ على الكنيسة بدخول هذا العيد، ذلك لأنّ القانون رقم (٤٩) من قوانين مجمع اللاذقية (٣٤١-٣٨١م) يفيد بأنّ عيد البشارة لم يكن معروفاً في الكنيسة خلال القرن الرابع الميلادي. فيقول القانون: "لا يجوز تقديم الخبز في أيام الصّوم الكبير فيما عدا السُّبوت ويوم الرّب". ومن أجل ذلك، يشرح العالم القانوني برسيغال (١٨٥٤-١٩٠٣م) معقّباً على هذا القانون فيقول: "يجب أن نضيف إلى أيام السُّبوت والآحاد، عيد بشارة العذراء، فهو عيدٌ عظيمٌ يُحتفل فيه بإقامة قُدّاس كامل، حتى ولو وقع يوم الجمعة العظيمة". والكلام هنا عن الطّقس البيزنطي وليس القبطي.

وعن الكنيسة البيزنطية التي أولت هذا العيد أهميّة بالغة، انتقل العيد إلى باقي الكنائس الشّرقية الأخرى.

والجدير بالذكر هنا، أنّ الطّقس القبطي لا يحتفل بعيد البشارة إذا وقع بين جمعة ختام الصّوم، وثاني يوم عيد القيامة المجيد. وعندما اتّخذت بعض الكنائس الشّرقية الأرثوذكسية التّقويم الأرثوذكسي المصحّح في الأعياد الثّابتة، وأبقت على التّقويم اليولياني لحساب الأعياد المتنقلة حرصاً منها على أن يكون الاحتفال بعيد الفصح المقدّس في يوم واحد في كلّ الكنائس الأرثوذكسية، لم يبق من سبيل لوقوع عيد البشارة في حسابها بعد يوم الخميس السّابق لأحد الشّعائين. أمّا الكنائس التي لا تزال متّبعة التّقويم اليولياني في كلّ الأعياد - مثل الكنيسة القبطية - فلا يزال في الإمكان أن يقع عيد البشارة عندها يوم الجمعة العظيمة، أو ما بعده حتى يوم الثلاثاء من الأسبوع الجديد.

السؤال الثالث: لماذا اختارت الكنيسة يوم ٦ يناير / ١١ طوبة للاحتفال بعيد الغطاس، وهل كان هذا اليوم أهميّة في مصر قبل المسيحية؟ وهل حقاً كان الغنوسيون يحتفلون به في القرن الثاني الميلادي؟

الجواب: كان الغنوسيون يحتفلون مع باسيليدس الهرطوقي الغنوسي بيوم العماد في ٦ يناير من كلّ عام، كما يذكر ذلك العلّامة كليمنديس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م)^(٧).

وإنّ اختيار يوم ٦ يناير، كان بسبب أنه في هذا الوقت يبدأ النهار يطول أكثر من الليل، والمسيح له المجد هو الثور الذي أشرق في الظلمة. وهو التّعليم الذي يتكرّر في أكثر من موضع من العهد الجديد. كما أنّ ملاحي النبي يذكر بوضوح في نبوّته (ملاحي ٢:٤) أنّ المسيح هو شمس البر. لذلك فقد تبنّى المسيحيون الأوائل الاحتفال بيوم ٦ يناير كعيد للثور الإلهي أو للظهور الإلهي، أي تجسّد المسيح ومعموديته^(٨). فارتبط الاحتفال بعيد ميلاد والغطاس للسيد المسيح بيوم الانقلاب الشّتوي، ليحلّ محلّ أعياد وثنية كان يحتفل بها العالم الوثني القديم في مثل هذا اليوم^(٩).

ففي سنة ١٩٩٦ ق.م كان التّقويم المصري القديم يسجّل أنّ الانقلاب الشّتوي يحدث في يوم ٦ يناير قبل أن يُعدّل هذا التّقويم في سنة ٣٣١ ق.م^(١٠). ولقد بحث العالم الألماني كارل هول K. Holl أهميّة هذا التاريخ من النّاحية الوطنيّة في

7- Clement of Alexandria, *Stromata*, I, 21.

٨- مجلّة الثور، العددان ٩، ١٠ تشرين الثاني وكانون الأوّل سنة ١٩٧١م، ص ٣٩٩

9. J.G. Davis, *A Dictionary of Liturgy and Worship*, SCM Press LTD, 1972, p. 134, 135.

10- *Ibid.*, p. 134, 135.

الإسكندرية، وخلص إلى القول، بأنه من المحتمل أن العيد قد أخذ عن عيد قديم، وهو عيد أوزيريس. ففي هذا العيد الذي كان يُقام في الإسكندرية في يوم ٦ يناير، كان يُحتفل فيه ببدء إطالة النهار وميلاد أيون Aion وأمه كوري Kore. وكانت الآلهة ديونيسيوس وأيون يمثلون الشمس، فهو عندهم عيد انتصار الثور على الظلمة. ولقد سُمي هذا العيد أيضاً في روما بـ "عيد ميلاد الشمس التي لا تُغلب – Natalis Solis Invicti".

وكان الاعتقاد في مصر القديمة، أن قوة إلهية تحمل الشفاء، تحل في مياه النيل في يوم ٥ يناير، أي في الليلة السابقة ليوم ٦ يناير، وربما كان مبعث هذا الاعتقاد، هو إلقاء جسد أوزيريس في مياه النيل. ويذكر العلامة كليمنس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م) أن الغنوسيين كانوا يُقيمون صلاة طوال الليل، ليلة السادس من يناير، وإن كنا لا نعرف إن كانت هذه الصلوات لتقديس مياه النيل أم لا^(١١).

السؤال الرابع: لماذا نحتفل بعيد الغطاس ثلاثة أيام دون باقي الأعياد السيديّة؟

الجواب: لم يرد أي ذكر عن أن الاحتفال بعيد الغطاس يمتد لمدة ثلاثة أيام، في أي من الوثائق الطقسية القديمة. فحين نتبع دخول الأعياد السيديّة إلى الكنيسة القبطية تباعاً، نلاحظ أن أول ذكر لعيد عرس قانا الجليل كعيد مستقل قائم بذاته، كان بعد القرن الثالث عشر الميلادي على أقل تقدير أو في غضون ذلك لأن هذا العيد لم يرد ذكره في قائمة الأعياد التي وردت عند البابا كيرلس بن لقلق (١٢٣٥-١٢٤٣م).

ففي هذا الوقت المتأخر رُتب عيد عرس قانا الجليل ليكون في يوم ١٣ طوبة. ولأن عيد الغطاس كان يقع دائماً في يوم ١١ طوبة من كل عام، فقد امتد الاحتفال بطقس الفرح ليغطي أيام ١١، ١٢، ١٣ طوبة. وفي الحقيقة فإن يوم ١٣ طوبة لم يكن احتفالاً بعيد الغطاس كالثالث يوم للعيد، بل بعيد عرس قانا الجليل.

11- Karl Holl, *Der Ursprung des Epiphaniensfestes in Gesammelte Aufsätze zur Kirchengeschichte*, II, Der Osten, Tübingen, 1928, p. 123ff.